باب الأول المحاضرة الثانية

الامبراطورية الرومانية

يبدا المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ أوربا في العصور الوسطى باستعراض أحوال الامبراطورية الرومانية في أقصى مراحل قوتها وعظمتها . وليس معنى هذا أن تاريخ أوربا في العصور الوسطى يبدا بداية دقيقة من هذه المرحلة ، وانما نستهدف من هذا العرض أن يساعدنا على فهم الأسس والعوامل التي كيفت التاريخ الأوربي في العصور الوسطى. هذا الى أن حضارة أوربا في العصور الوسطى ليست في حقيقة أمرها الا مزيجا من حضارة الرومان من جهة وحضارة العناصر البربرية التي اجتازت حدود الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها واختلطت بأهلها من جهة أخرى .والواقع أن الامبراطورية الرومانية كانت أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ ، اذ لم يقدر الامبراطورية أخرى في تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الامبراطورية الرومانية من قوة واتساع . ذلك أن هذه الامبراطورية ضمت بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة- باستثناء فارس والهند - وذلك عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان(٩٨- ١١٧) وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسي غربا حتى الفرات شرقا، فشملت في الغرب البلاد المعرفة بأسماء بريطانيا وغاليا وايبريا وايطاليا واليريا فضلا عن شمال أفريقية من المحيط الأطلسي حتى طرابلس ، في حين شمال الجزء الشرقي من الامبراطورية
البلقان واسيا الصغرى واعلى بلاد النهرين فصلا عن الشام ومصر وبرفه هذا مع ملاحظه ان نفوذ روما امتد بعيد الى ما وراء حدودها السياسية حتى بلغ فارس والهند وتطوق الى النوبة والسودان ونفذ الى جوف الصحراء الكبرى عبر جبال اطلس كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة في مجاهل اوربا شرق الراين وشمال الدانوب. وترجع عظمه الإمبراطورية الرومانية الى ان السلطة المركزية فيها استطاعت ان تحكم سيطرتها على هذا المساحات الجغرافية المترامية الاطراف وعلى تلك الشعوب والامم المتباينة الاصول والحضارات الامر الذي تطلب من الحكومة الرومانية اصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب الذي اختلفت بعضها عن بعض في تراثها التاريخي وحضاراتها ولغاتها ودياناتها وليس هذا وحده هو مصدر عظمت الإمبراطورية المثار الاعجاب بها وانما تبدو هذا الاعظمة واضحه جليه في مقدره الإمبراطورية الرومانية على استيعاب الشعوب العريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين جنبا الى جنب مع شعوب اخرى حديثه المولد ومازالت في فجر تاريخها مثل الغالبين الرومان .وهنا نلاحظ ان متداد الإمبراطورية الرومانية على شواطئ البحر المتوسط جعل من هذا البحر شريانا رئيسيا يربط بين مختلف جزائها في حين ساعدت الانهار الداخلية على الربط بين اطراف الولايات هذا فضلا عن الطرق المعبدة التي اشتهرت بها

حضارة الرومان والتي أقاموا منها شبكه واسعه مترامية ليس لها نظير في التاريخ. وكانت الإمبراطورية في ازها عصورها وهي الفترة الواقعة بين قيام اغسطس سنه ٢٧ق.م. ووفاة ماركوس اورليوس ١٨٠م تمثل بناء اجتماعات سليم مترابط البنيان. ذلك انها كانت في نظر الطبقات العليا تعبر عن نظام اداري امتاز بالكفاية والدقة في حين اعتقد الطبقات الدنيا ان الحكومة الرومانية تقوم بحمايه الممتلكات والارواح في ظل قانون عادل دون ان تحل التدخل في حياة الناس اليومية او تعمل على تغيير لغاتهم او معتقداتهم او نظمهم الاجتماعية.

اما عن طابع الحكومة الرومانية في أوائل عصر الإمبراطورية اي حتى الاصلاحات العظيمة التي ادخلها دقلديانوس في اواخر القرن الثالث ـ فيلاحظ ان هذا الحكومة كانت ملكيه مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهوري السابق، او ربما كان من الادق القول بأنها ظلت جمهوريه مع ظهور رأس للدولة وللجيش الروماني يتمتع بمنصبه طوال حياته. وهكذا ظل السناتو يباشر سلطاته الواسعه ،واستمرت المناصب العليا في الدولة بأيدي الاستقراطية من كبار ملاك الاراضي، كما بقى المواطنين الرومان يمثلون طبقه ممتازة وان فقدوا كثيرا من اهميتهم السياسية. ولذلك يبدو من الخطأ ان ننظر الى هذه الحكومة على انها كانت عسكريه بحته او استبداديه مطلقه. حقيقه انها لم تكن ملكيه دستوريه ، ولكنها امتازت ـ ولا سيما في العصر الاول للإمبراطورية بسيادة العرف والتقاليد والقانون، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهوري مما أكسب الحكومة الرومانية عندئذ مظهرا دستوريا واضحا. والواقع ان النظام السياسي الذي وضعه أوغسطس(٢٧ق.م ـ ١٤م) يعتبر حلا وسطا بين النظامين الملكي الاستبدادي والجمهوري الدستوري. ذلك انه كان امام اوغسطس ان يختار بين نظامين الحكم، الاول نظام قصير الذي قام على اساس حكم عسكري اعترف فيه جميع الناس ـ سواء في ايطاليا او الولايات ـ بالطاعة العمياء لسيدهم الاعلى ، والثاني نظام الحكم الجمهوري الذي يقر اهميه المواطنين الرومان في ايطاليا والولايات الى جانب الاعتراف بسلطه قائد القوات المسلحة في الدولة. وهنا لجأ او غسطس الى التوفيق بين النظامين ، اي بين الزعامة العسكرية التي ورثها عن اسلافه والتي اضحت ضرورية للمحافظة على سلامه الإمبراطورية وامنها وصالحها العام، وبين رغبه المواطنين الرومان في احتفاظ بمكانتهم الممتازة ـ على الاقل في الميادين الاجتماعي والاقتصادي ، ان لم يكن في الميدان السياسي .وهكذا نبذ اوغسطس حكم قصير المطلق ولكنه ركز في يد الامبراطور معظم السلطات التي اعتاد ان يباشرها كبار الموظفين في العصر الجمهوري ، وبخاصه القيادة الحربية التي انتقلت من ايدي القناصل الى يد الامبراطور. واذا كان السناتو قد ظل محتفظا بهيبه ومكانته القديمة في ظل النظام

الجديد، الا ان سلطاته التشريعية والقضائية والإدارية تناقضت بصوره واضحه ،كما اصبح يتألف من الاعضاء يختارهم الامبراطور من مختلف انحاء الإمبراطورية على اطلاق بعد ان كان في العصر الجمهوري يمثل اقليه ممتازة محدودة مما جعل الطبقة السنانوريه ssnatorial class تعتمد على اوغسطس اعتمادا تاما. وقد عاب بعض المؤرخين على الإمبراطورية الرومانية في اوائل عهدها افتقارها الى وجود قانون وراثي ثابت ينظم وظيفه الامبراطور. ونحن لا ننكر مدى خطورة هذه الثغرة في النظم الرومانية عندئذ ،ولكننا يجب ان نعترف بان علاجها لم يكن امرا يسيرا بالدرجة التي قظ نتصورها. وذلك ان ثمه حقيقه كبرى ينبغي الا تغيب عن اذهاننا، هي ان الإمبراطورية الرومانية في عصرها الاول لم تكن مجرد امبراطوريه في قالب جمهوري فحسب،بل كانت استمرارا للنظام الجمهوري السابق وامتدادا له،مما تعذر معه وضع قانون وراثي ثابت للحكم.